
مرايا التراث
العدد الحادي عشر – خريف ٢٠١٩/ شتاء ٢٠٢٠

تاريخٌ طويلٌ سابقٌ إعلانَ الأول من أيلول

لبنان كيانٌ حيٌّ وفاعلٌ وموجود

كمال ديب

جامعة أتوى – كندا

لأنني أحتفلُ بذكرى استقلال لبنان عن فرنسا عام ١٩٤٣، وبالذكرى المئوية لولادة دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠، أرفض منطقَ الذين يسخرون من كيان لبنان ويعتبرونه «**مصطنعًا ذا تاريخٍ مزيَّف وحدودٍ مركّبة**»، وكذلك منطق مَن يسخرون من رموز لبنان الثقافيةِ والحضارية والاجتماعية.

دولة «**لبنان الكبير**» نشأت عام ١٩٢٠ وكان أساسها فكرة لبنانية ترتكز على ثلاثة أعمدة: شرعية الكيان، أسطورته التاريخية، وضعه الراهن. فماذا عن كلٍّ منها؟

١. شرعية الكيان

تنازعت لبنانَ تياراتٌ فكريةٌ راوحت بين القومية اللبنانية والقومية السورية والقومية العربية. أصحاب «القومية اللبنانية»، بأبحاثها الفكرية والفلسفية والعلمية، فشِلوا في دحض أفكار العقائد القومية الأُخرى المنتشرة في لبنان. القوميتانِ السورية والعربية فشلتا أيضًا في خلق حقيقةٍ لعقائدها جغرافيةٍ تُمكّنها من وضعها في التجربة والتطبيق. ونجحت القومية اللبنانية في امتلاكها حقيقةً شرعية راهنة: فالأمة اللبنانية – لا الأمة السورية ولا الأمة العربية – هي التي أصبحت حقيقة قائمة في دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠.

المفكّر اللبناني كمالِ يوسف الحاج سعى إلى بناء مشروع فكري: «**الفلسفة اللبنانية**» وركّزَ أساس مشروعه على ثلاثة «**فلاسفة**» لبنانيين عاصرهم في شبابه: شارل مالك وأمين الريحاني وأنطون سعادة. وإذا أنطون سعادة وضع «**الفكرة السورية**» (كانت حاضرة قبله في بلاد الشام) في قالب قومي أسّس عليه حزبًا سياسيًا في الثلاثينيات، فقبله قال مفكرون آخرون سبقوا سعادة بمقولة الوطن السوري المناهضِ الحكمَ التركي في طليعتهم بطرس البستاني صاحب **نفير سورية**، وابراهيم اليازجي، وأعضاء **الجمعية العلمية السورية**، و**الجمعية السرية في**

بيروت. يبدو أنّ أنطون سعادة[١] استوحى أفكاره من تلك البيئة، لكنه لم يكتَفِ بما أنتجَهُ البستاني والآخرون في القرن التاسع عشر، بل توسَّعَ إلى درس الفكر الأوروبي فاستنبط أفكارًا مستوحاةً من تاريخ المشرق لتأسيس فكرة قومية تعود إلى ما قبل التاريخ الجلي.

قوميات ثلاث وُلِدت في لبنان

مقارنةً بمنهج سعادة السوسيولوجي، جاء منهج كمال الحاج[٢] في القومية اللبنانية فلسفيًّا وثقافيًّا في قالب تاريخيّ كسعادة. برز منذ الستينات مقارعًا العقيدتَين القوميَّتَين السورية والعربية مبيِّنًا نقاط ضعفهما[٣]. رأى أنّ الأسلوب الذي تعبّر به أمة عن ذاتها هو المظهر الأهَمُّ من مظاهر القومية، وأسلوب التعبير هذا يبدأ بأن تكون الأمة حقيقةً مجسَّدةً في فضاء جغرافي معيَّن وحيِّز زمني محدّد. وهذا ما استطاعته القومية اللبنانية وعجزت عنه القوميَّتان السورية والعربية. كان كمال الحاج يكنُّ احترامًا كبيرًا لأنطونِ سعادة، لذا أخذ مقولته إنّ الأمة تمتلك بُعدًا تفتقدُه وحدات جغرافية أقلُّ شأنًا، هو «**البُعد السياسي الذي يسبق البنيتَين الاجتماعية والاقتصادية**». هكذا أكّد الحاج أنّ لبنان يمتلك البُعد السياسي الذي رآه سعادة، وهو ما يجعله «أُمَّة». واللافت أن القوميات الثلاث (اللبنانية والعربية والسورية) وُلدت جميعُها في لبنان، وكانت جزءًا من نشاط فكري وثقافي لبناني انفرد به لبنان دون الدول العربية.

تحدّى الحاج الأفكار القومية السورية والعربية بتساؤُله: إذا كان هدفُ القوميين السوريين والقوميين العرب إزالةَ مفاعيل الاستعمار الأوروبي الذي قسَّمَ المنطقةَ العربيةَ دويلاتٍ، فلماذا لم يُصبحوا القوّةَ الأساسيةَ في مجتمعات لبنان والمشرق؟ ولماذا لم يَصِلوا إلى الحكم؟ ورأى الجوابَ في أنّ أفكارهم لم تجِدْ مساحةً شعبيةً تحتضنها مثلما وجدَتْها الفكرةُ اللبنانية في لبنان. أما اعتبار هؤلاء أنّ دولة لبنان «**كيان مزيّف ومصطنع**» فاعتبارٌ خاطىء لأنّ لبنان هو تَوالي قرونٍ من التاريخ والعادات والتقاليد وتعايشِ الفئات الدينية والإثنية. وهذا التوالي التاريخي لا يمكن أن يختفي مهما

١) لبناني أرثوذكسي ولد في ضهور الشوير (١ آذار ١٩٠٤) أي قبل ولادة لبنان الكبير وقبل ولادة الجمهورية اللبنانية. وكان اللبنانيون عصرئذٍ يُدعَون في المغتربات «سوريين» أو «أتراكا» (توركو).

٢) http://www.kamalyoussefelhage.org/index.html

٣) كمال الحاج، من محاضرة «**قوميات إزاء القومية اللبنانية**»، الأحد ١٥ شباط ١٩٧٠ في جامعة الروح القدُس، الكسليك (من سلسلة تسع محاضرات نظَّمَتْها الجامعة ونشرَت نصوصَها في كتاب «**أبعاد القومية اللبنانية**»، ١٩٧٠، ٢٠٤ صفحات).

هاجمه كيانٌ أقوى منه أو تعرَّض لغزو خارجي لم يقدر على مواجهته. وحتى لو أدّت التهديدات الخارجية إلى خسارة سيادة الدولة اللبنانية على أرضها، فسيَخْلُق هذا الخطر تقارُبًا شعبيًا عارمًا بين المسلمين والمسيحيين معًا، معبّرًا قوميةً لبنانية تعيد التوازن إلى الدولة وإلى السيادة. ويستنتج كمال الحاج أنّ انهيار الحكومة اللبنانية لا يؤدي إلى غياب الدولة.

دولة من صنع التاريخ

حول شرعية الكيان يحلل كمال الحاج فلسفيًا: «**القومية اللبنانية موجودة بالفعل والقانون. وهي وليدة إرادة مجموعية تعود بجذورها الى مئات السنين في التاريخ الأكبر. لقد صارت صيغة رياضية... هناك دولة لبنانية تجيز لي عقلانيًا أن أؤكّد وجود القومية اللبنانية، ولا تجيز لك أن تؤكّد إلا عاطفيًا وجود قوميّتك اللالبنانية. أُكرر ما قاله أنطون سعاده إن التاريخ لا يسجّل الأماني ولا النيات بل الأفعال والوقائع. انطلاقًا من هذا السند وضَعَه سعاده يمكنني القول إن القومية اللبنانية موجودةٌ وحدها في لبنان بوجود الدولة اللبنانية... أنا قومي لبناني بفعل القوَّة التي لمنطق الجدل. أنا قومي لبناني بقوة الفعل الذي لواقع السياسة... ربما كانت الحكومة اللبنانية يومذاك (عند إعلان لبنان الكبير) من صنع الجنرال غورو. أما الدولة اللبنانية فهي من صنع التاريخ الممتدة جذورُه إلى ما قبل التاريخ الجلي. الدولة تركيب إثني. ولعلها أجدر الشؤُون والمظاهر الثقافية تمثيلاً للحياة العقلية التي هي من خصائص الاجتماع الانساني. إذا كانت القومية اللبنانية وليدة دولةٍ جاءَت بشحطةٍ من رأس قلم غربي، فلماذا لا تزيلونها بشحطة معاكسة من رأس قلمكم؟ هكذا ترتاحون وتريحون. هب أن القومية اللبنانية كرتونة، فهذه الكرتونة تغلَّبَت على فولاذكم المزعوم. وعندما يتغلب الكرتون على الفولاذ، يعني أنَّ كرتوننا فولاذ وأنَّ فولاذكم كرتون**»[٤].

٢. أسطورة لبنان التاريخية

الفكرةُ اللبنانية احتاجت لدعمها إلى بُعد تاريخي. من مطلع القرن العشرين حتى سبعيناته ظهرت كتابات كثيرة وضَعَها مثقفون ومفكّرون خَلَقوا بها مكتبة متينة عن جذور لبنان منذ فينيقيا فعهد الإمارة (١٥١٦–١٨٤٣) وصولاً إلى القرن العشرين.

٤) كمال الحاج: «إنِ لفظة «عربي» صِفةٌ لا وُجُود. او قُل: هي نعتٌ مضاف إلى وُجود. تعني فقط أن كل مَن يتكلم العربية كلُغةٍ أُمٍّ له هو عربي. وعليه: أنا عربيٌّ لسانًا. وهذا لا يتنافى مع قوميتي اللبنانية» (من المحاضرة ذاتها).



في مقابلة مع سياسي لبناني مخضرم يتغنّى بلبنان مباشرةً بعد الاستقلال، تحدّاه السائل بأنّ «**لبنان لا يملك تاريخًا موثّقًا ومدوّنًا يميّزه عن بيئته الجغرافية العربية الإسلامية**». أجاب ذاك السياسي: «**إذا كان صحيحًا ما تقول، وجَبَ على كلّ مؤرخ وأكاديمي لبناني أن يكتب للبنان تاريخًا مستقلاً منفصلاً عن غيره**». وممّن عالجوا هذا الأمر في القرن العشرين: فيليب حتّي (**لبنان في التاريخ**) وكمال الصليبي (**تاريخ لبنان الحديث**).

فيليب حتّي المرجع الموثَق

بين مؤلفات حتي: **لبنان في التاريخ**، **تاريخ العرب**، **سورية بما فيها لبنان وفلسطين** (تعريب عنوان هذا الأخير غيَّرَ العنوان الأصلي بالانكليزية فصدر بالعربية: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**)[٥]. وكان كتابه عن لبنان (١٩٤٦) أول محاولة شاملة موثّقة شرحت أكاديميًا كيف تاريخُ لبنان يمتدّ آلاف السنين، ما أَعطى دعاة القومية اللبنانية وثيقةً تُثبت مقولتهم بأمّةٍ لبنانيةٍ بدأت قبل ستة آلاف سنة. هكذا سُمِّيَ حتي «**أبا التاريخ اللبناني**» وبات كتابه مرجع القائلين بالقومية اللبناني فجعلوا ينافحون عن فكرتهم داعمينها بحجّة دامغة: «هكذا جاء في كتاب حتي». وبعد حتي كتب مؤرخون لبنانيون كثيرون نبشوا تاريخ لبنان منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وصولاً إلى إمارة جبل لبنان.

انتقد مؤرخون جامعيون كتاب **لبنان في التاريخ** بأنّه «وصفي غير نقدي»، وبقيت مرجعيته أنه الرواية التاريخية الكاملة عن لبنان قبل ظهور أيّ مرجع مشابهٍ نقديٍّ أو وصفيٍ. ورأى آخرون أنّ كتاب حتّي ظهر بعدما لبنانُ بات حقيقةً جغرافيةً ودولةً وكيانًا سياسيًّا معترفًا به عربيًّا ودوليًّا. ورأى كمال الحاجّ أنّ «الفكرة اللبنانية» لم تكن تحتاج إلى التبرير طالما الكيانُ حيٌّ وفاعلٌ وموجود.

في غياب رواية رسمية للكيان (تشخيص أحمد بيضون[٦])، ولوضع كتاب تاريخ موحَّد لكل اللبنانيين، ظهرت محاولات توفيقية خفّفت من المنحى الأوروبي للفكرة اللبنانية وأكّدت أنّ الفينيقيين نطقوا بلسان ساميّ،

٥) Philip Hitti, *Lebanon in History*, London, MacMillan, 1967; Philip Hitti, *History of Syria including Lebanon and Palestine*, New York, MacMillan 1951.
فيليب حتي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، بيروت، دار الثقافة، ١٩٩٨.

٦) أحمد بيضون، **الصراع على تاريخ لبنان**، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٨٩.

وشاركوا سكّان المشرق بالعادات والتقاليد والثقافة. وأكثر: صحيح أنّ للبنان ميزاتٍ خاصةً لكنّه يشارك محيطَه ثقافةً وتاريخًا وجغرافيا. وإذا كان العربي هو الذي يتكلم العربية لغتَه الأُمّ ويعيش في المناخ الثقافي العربي العام مسيحيًا كان أم مسلمًا، فجميعُ اللبنانيين، عدا الأرمن، هم أولادُ عربٍ إمّا بالأصل القبَلي أو بالإرث اللغوي الثقافي. واللبنانيون الضليعون في الثقافة الفرنسية (ومنهم عشرات أبدعوا في آداب اللغة الفرنسية[٧]) يتشاركون المواصفات مع بقية اللبنانيين: هُم أهل جبل وسهل وساحل، يفخَرون بكرم الضيافة العربية وبالشرف والكرامة والأخلاق الاجتماعية والروابط العائلية (لا يُعقَل أن يكون الأمير بشير أو الأمير فخرالدين أغفَلا نسَبَهما الشريف إلى قبائل عربيةٍ عريقة). واللبنانيون، برغم تراثهم السرياني، لا يتكلمون غير العربية لغَةً أُمًّا، ومثقفو لبنان، المسيحيون منهم عمومًا، حافظوا على اللغة العربية وحفظوها من اضمحلال أكيد إبّان الهيمنة التركية وأعمال التتريك.

لبنان في الكتاب المقدَّس

حول قِدَم لبنان يشير شارل مالك إلى خلود لبنان في الكتاب المقدّس: «**شهادةُ الكتاب المقدَس ستبقى، وستبقى معها الصورة التي رسَمَها للبنان. وكلُّ من يقرأ الكتاب من الآن وإلى الأبد سيتأمّل لبنان في رسمه الأزلي**»[٨]. لبنان إذًا، وما يمثّله كبَلَد، هو جزء من الأرض المقدّسة. وفي الكتاب المقدّس (**العهد القديم والعهد الجديد**) ورَدَ اسمُ لبنان ٧٠ مرّة، وأرز لبنان ٧٥ مرّة، ومدينة صور ٥٩ مرّة، وصيدا ٥٠ مرّة، وورَدَ فيه ذِكْرُ ٣٥ قرية لبنانية و١٠ مناطق لبنانية و١٠ شخصيات لرجال ونساء من لبنان[٩]. ويصف سفْر القضاة سكان لبنان «**من جبل بعل حرمون إلى مدخل حماة**»[١٠]. وفي الكتاب المقدّس نصوص كثيرة ذكرَت لبنان في المزامير والأناشيد: «**هلمّي معي من لبنان/يا عروس معي من لبنان/شَفتاكِ يا عروسُ تقطران شهدًا/تحت لسانك عسل ولبن/ورائحة ثيابك كرائحة لبنان... أختي العروس جنَّة مغلقة عين مقفلة/ينبوع**

٧) موقع ألكسندر نجار الإلكتروني ينشر عن عشرات المبدعين اللبنانيين باللغة الفرنسية.

٨) شارل مالك، **لبنان في ذاته**، بيروت، مكتبة التراث اللبناني، ص ٧٩.

٩) غسان إيليا خلف، **لبنان في الكتاب المقدَس**، منصورية المتن، دار منهل الحياة، ص ٩.

١٠) **العهد القديم**، سفر القضاة، ٣:٣.

مختوم... ينبوع جنّات، بئر مياه حيّة وسيول من لبنان»[١١]. وفي سفْر «**نشيد الأناشيد**» ملحمة حب بين عروسين يستعمل العريس في وصفِهِ عروسَهُ أسماء وتشابيه كثيرة من لبنان. ويقول أيضًا «**طَلعتُه كلبنان فتى كالأرز**». وفي سفر أشعيا: «**تفرح البرية والأرض اليابسة، ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس. يُزهر أزهارًا ويَبتهج ابتهاجًا ويرَنم. يُدفع إليه مجد لبنان... هم يَرَون مجد الرب بهاء الهناء**»[١٢]. وأيضًا: «**مجد لبنان إليك يأتي السرو والسنديان والشربين معًا لزينة مكان مَقْدِسي وأُمَجِّدُ موضعَ رجلَيَ**»[١٣].

وفي **الإنجيل** زيارة المسيح جنوبَ لبنان ومدينَتَي صيدا وصور، وتَجَلِّيه على جبل الشيخ معلنًا مجدَه لتلاميذه، وصورة إتيانه في ملكوته، وذكْرٌ واضحٌ لجموع الناس من جنوب لبنان تهرع إليه، تصغي لتعاليمه وتؤمن به. ويشرح الكتاب المقدس انتشارَ المسيحية في لبنان مع بداية العصر الرسولي، وتأسيسَ كنائس في صور وصيدا ومدن الساحل، ويذكُر المسيحَ رامزًا إليه بشجر الأرز. وبارك المسيح لبنان لانتشار التسامح الديني في أراضيه. ومن أمثلة هذا التسامح أنّ أحيرام ملك صور رضي أن يساهم في بناء هيكل سليمان، وفي الصرفند جنوب صيدا استقبلت أرملةٌ النبيَّ إيليا الهاربَ من ملكة آخاب، حادثةٌ ذكرها المسيح عندما وبّخ اليهود لرفضهم كلَّ جديد وانطوائهم الزائد على ذواتهم. وعندما قاومه الفريسيون جاء المسيح نواحي صيدا وصور طلبًا للراحة في لبنان[١٤].

٣. وضع لبنان الراهن

خلال ١٠٠ عام كان لـ«لبنان الكبير» أن يعطي العالَمَ صورةً حضاريةً ومزيجًا ثقافيًّا كأفضل نموذج للمواطنية في المجتمعات المعاصرة، وكمساهم بارز في النتاج الحضاري والثقافي واللغوي العربي. واستقلال لبنان عام ١٩٤٣ أمر راهن لا جدال فيه، وتاريخه الذي سبق ١٩٢٠ أمرٌ لا جدل فيه. والاعتراف بالتاريخ العريق يَزيد ثقة اللبناني بذاته، ويُؤَكِّد على صدقية الكيان الذي لا يَستجد بالأكاذيب لتبرير حضوره الثابت.

---

١١) العهد القديم، نشيد ٤: ٨ إلى ١٥.

١٢) **العهد القديم**، سفر أشعياء ٣٥: ١ و٢.

١٣) **العهد القديم**، سفر أشعيا، ٦٠: ١٣.

١٤) غسان إيليا خلف، **لبنان في الكتاب المقدّس**، منصورية المتن، دار منهل الحياة، ص. ١٣.

كلُّ لبناني سيجدُ طيلة هذا العام أسبابًا حقيقية للاحتفال اعتزازًا بمئوية لبنان الكبير. وهي أسباب تاريخيةٌ ثقافيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا أعطت لبنان شخصيتَه المميَّزة وهويته الفريدة. فماذا عنها:

أ) **ثقافيًّا:** ذكرتُ في كتابي **تاريخ لبنان الثقافي** (المكتبة الشرقية–بيروت) أنّ «النهضة العربية بدأت نواةً قوامُها بيروت وحلب والقاهرة ثم انطلقَت إلى بقية المدن والبلدان العربية. لكن بيروت، بمساهماتها في النهضة، بزّت مدُن الشرق حجمًا ونوعيةً بإنتاج القواميس العربية وعدد الشعراء والأدباء وصناعة الإعلام والصحافة بالعربية: أُمَّهات الصحف العربية في القاهرة (وأبرزها **الأهرام**) والمجلات العلمية العربية والجمعيات العلمية والمؤسسات التعليمية وطباعة الكتب بالعربية حقَّقها لبنانيون. واستمرّت في ريادتها حتى حرب ١٩٧٥ وبقيَت مركزًا مهمًا وحيويًا للإشعاع والحضارة، واستأنفت حضورها منذ انتهاء الحرب عام ١٩٩٠. صحيح أنّ لبنان يتشارك بمعظم أوجُه الثقافة مع جواره الإقليمي العربي لكنّه حمل تراثَه إلى جميع البلدان. صحيحٌ أنّ رقصة الدبكة والفولكلور الغنائي الشعبي واللباس: مظاهر مشتركة مع سورية وفلسطين والأردن لكنّ لبنان طوّر هذا التراث وقدّمه للعالم لوحاتٍ راقية مع فيروز والأخوين رحباني والفرق الشعبية. صحيح أنّ لبنان يتشارك في أصوله الفينيقية مع سورية وفلسطين لكنّه نجح في سكب هويّته الوطنية بمسحة فينيقية استمرّت مع الأجيال الجديدة.

ب) **سياسيًّا:** حافظَ لبنان على نظامه الديمقراطي الحر برغم عيوبه وخصوصًا ثغراتُهُ الطائفية. وهو في محيطه البلد الوحيد الذي يشهد تغييرًا دوريًا في البرلمان والحكومات ومناصب السلطة الأولى ويعيش تجربة تعددية حزبية وتنوُّعًا ملحوظًا في الجمعيات والأحزاب والحياة السياسية والاجتماعية. الحرية رسالةُ لبنان الذي وسَمَهُ البابا يوحنا بولس الثاني «أكثر من وطن». قابلتُ كثيرين في حياتي أجمعوا أنّ الحرية في لبنان أفضل حتى من دول أوروبا، وأنّ ما يكتبه المواطن في لبنان لن يستطيعه في أميركا وأوروبا والبلاد التي تتغنّى بالحريات.

ج) **اجتماعيًّا:** في أشرس سنوات الحرب (١٩٧٥–١٩٩٠) لم ينهَر التلاقي الاجتماعي اللبناني وبقي حدٌّ أدنى من التعاضد. ظنّ كثيرون أنّ لبنان يحتاج سنواتٍ ليلتئمَ ويعودَ إلى السلم الأهلي. وأصرّ حازم صاغية في كتابه **شعوب الشعب اللبناني** على تظهير الفروقات إمعانًا في تمويه الواقع الأكثر إشراقًا. ولكن التنوُّع المناطقي في المذاهب عاد إلى كل لبنان، والزواج المختلط بات شأنًا عاديًا حتى بلغ عدد الزيجات المختلطة بين

مسلمين سنّة وشيعة المليون شخص، وبين مسلمين ومسيحيين عشرات الألوف، وتشكّل مدينة زحلة الكبرى (امتداد عمراني واحد من شتورة إلى كرك نوح) أكبر حالة تنوّع ديني ومذهبي في لبنان خارج بيروت. ويعرف لبنان حياة مدنية لبنانية ناجحة في الثقافة والفنون والإعلام والنوادي والأحزاب وأمكنة العمل وفي الإدارات الرسمية وشبه الرسمية (مدارس، مستشفيات...) والمؤسسات الخاصة (مصارف، شركات، مصانع، قطاع سياحي)، وتتنامى الصداقات المختلطة في الجامعات الكبرى والمدارس.

لكل هذا، ولكثير سواه، قلتُ إني أرفض منطقَ الذين يسخرون من كيان لبنان ويعتبرونه «مصطنعًا ذا تاريخ مزيَّف وحدودٍ مركّبة»، وكذلك منطقَ مَن يسخرون من رموز لبنان الثقافيّة والحضارية والاجتماعية.

إن لبنان حقيقة جغرافية ودولة وكيان سياسي معترف به عربيًّا ودوليًّا.

إنه كيانٌ حيٌّ وفاعلٌ وموجود.

